فصاحة القرآن الثابتة والتطور اللغوي المتغير

Ali Burhan
Institut Agama Islam Negeri Pekalongan
aliburhan77@yahoo.com
DOI: http://dx.doi.org/10.18326/lisania.v1i1.90-108

Abstract
Fashahah according to the classic scholars is sealed by period, place, and vocabularies with certain conditions, while it according to contemporary scholars is a process of renewable development. In modern linguistics, it reveals the activities and thought of the modern Arab nation. It continuously describes its function as a different transmitter of the Arabic functions according to classic scholars which is more dynamic and not static. The result concludes that the classical Arab in the Qur'an is in peak not only as a means of conveying the thought, but also becomes the religious and unifying language of Arab nations with its various specifications. The process of evolution occurring in Arabic Language includes its pronunciation, structure of grammar, and dilalah.

Keywords: *Fluency, Al-Qur'an, language development*

Abstrak
Fashahah menurut ulama klasik tersekat oleh masa, tempat, dan kosa kata-kosa kata dengan syarat tertentu, sedangkan menurut ulama kontemporer merupakan proses pengembangan yang bersifat terbarukan. *Fashahah* dalam ilmu linguistic modern mengungkapkan kegiatan dan pemikiran bangsa Arab modern. Hal ini berkesinambungan dalam menggambarkan fungsinya sebagai alat penyampai yang berbeda dari fungsi bahasa Arab versi ulama klasik dan lebih bersifat dinamis tidak statis. Hasil dari tulisan ini menyimpulkan bahwa bahasa Arab klasik yang ada pada Al-Qur'an berada pada puncaknya tidak hanya sebatas sebagai alat penyampai pikiran, namun lebih dari itu menjadi bahasa agama dan pemersatu bangsa-bangsa Arab dengan berbagai spesifikasi yang ada di dalamnya. Proses evolusi yang terjadi dalam bahasa Arab mencakup sisi pelafalan, struktur tata bahasa, dan dilalahnya.

Kata kunci: kefasihan, Al-Qur'an, perkembangan bahasa

مقدمة

كان الشعب العربي معروفا بشدة حفظه وحفاظه على لغته منذ العصر الجاهلي الذي اشتهروا فيه بالتباهي بمدى معرفتهم لعلو الذوق اللغوي السليقي لديهم وتطبيق نواحي هذه المعرفة الجمالية خاصة في نظم الشعر الجاهلي. فعلى الرغم من صعوبة تعلم اللغة العربية لما فيها من كثرة الضوابط اللغوية سواء كانت صرفية أم نحوية أم إملائية، على الرغم من هذا كله فإن العرب قد أبدعوا في التعمق في لغتهم، فجرى القدر الإلهي السماوي بأن القرآن الكريم المنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم باللغة العربية الفصحى حيث إن الهدف منه – وهو الظاهر الملموس التاريخي – التحدي على العرب الذي كان معروفا ببراعتهم بلغتهم في الإتيان بمثله أو مثل أقصر سورة منه فعجزوا عن محاكاة القرآن لما رأوا فيه من علو الشأن وإحكام الأسلوب وروعة المعاني، ووصف الوليد بن المغيرة القرآن – وكان كافرا جاحدا برسالة محمد صلى الله عليه وسلم – بأنه يعلو ولا يعلى عليه.

فقد ورد في الحديث النبوي الشريف: عن ابن عباس رضي الله عنهما أن الوليد بن المغيرة، جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقرأ عليه القرآن فكأنه رق له، فبلغ ذلك أبا جهل، فأتاه، فقال : يا عم، إن قومك يرون أن يجمعوا لك مالا. قال: لم ؟ قال: ليعطوكه فإنك أتيت محمدا لتعرض لما قبله قال: قد علمت قريش أني من أكثرها مالا قال: فقل فيه قولا يبلغ قومك أنك منكر له أو أنك كاره له، قال: وماذا أقول؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار مني، ولا أعلم برجزه ولا بقصيدته مني، ولا بأشعار الجن. والله ما يشبه الذي يقول شيئا من هذا، ووالله، إن لقوله الذي يقول حلاوة، وإن عليه لطلاوة وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو وما يعلا، وأنه ليحطم ما تحته (رواه البيهقي في دلائل النبوة في باب جماع أبواب المبعث ١٨٧/٢).

فألفاظ القرآن هي الألفاظ التي يستعملها العرب في نثرهم وشعرهم وتمتاز بالدقة البالغة في اختيار اللفظ ويتفرد بسمو التراكيب وعلو الطريقة في اختيارها. وخالف القرآن نهج العرب وطريقتهم في شيء واحد، هو ذلك البناء الكلي للآية، وللآيات، وللسور، فهو متميز ببناء فريد لم يكن قبله، ولم يأت بعده ما يماثله.

قال أبو بكر الباقلاني: إنه نظم خارج عن جميع وجوه النظم المعتاد في كلامهم، ومباين لأساليب خطابهم، ومن ادعى ذلك لم يكن له بد من أن يصحح أنه ليس من قبيل الشعر، ولا من قبيل السجع، ولا الكلام الموزون غير المقفى، لأن قوما من كفار قريش ادعوا أنه شعر، ومن الملحدة من يزعم أن فيه شعراً، ومن أهل الملة من يقول: إنه كلام مسجع، إلا أنه أفصح مما قد اعتادوه من أسجاعهم، ومنهم من يدعي أنه كلام موزون. فلا يخرج بذلك عما يتعارفونه من الخطاب (الباقلاني، ١٩٩٧: ٥٠). وقال في موضع آخر:ولو كان القرآن سجعاً لكان غير خارج عن أساليب كلامهم، ولو كان داخلاً فيها لم يقع بذلك إعجاز (الباقلاني، ١٩٩٧: ٥٧). وقال في موضع ثالث: فاستدللنا بتحريهم في أمر القرآن على خروجه عن عادة كلامهم، ووقوعه موقعا يخرق العادة، وهذه سبيل المعجزات (الباقلاني، ١٩٩٧: ٦٤).

فالقرآن نزل باللغة العربية لأمرين أساسيين: أولهما الإعجاز؛ لإثبات صدق الرسالة، وذلك للقوم الذين نزل القرآن فى بيئتهم التى نشأ فيها الرسول وبدأ الدعوة، ولغيرهم من الناس بما يحويه من معلومات وتشريعات هى أصدق المعلومات وأحكم التشريعات، والثانى الهدايةلكل الناس التي يحملها من تلقوه باللغة العربية، ثم يترجمون هذه الهداية إلى غيرهم.وهذا ما حدث فى القرون الأولى، عرضت الدعوة على الناس كافة فآمن الكثيرون، ثم تفقهوا فى الدين بلغاتهم، ثم أتقن كثيرون منهم اللغة العربية، ففهموا ما تعلموا وترجموا ما يريدون أن يعلّموه الناس، وهذه الترجمة تعتبر تفسيرا بوجه من الوجوه لهداية القرآن ولا يحكم بها على كل ما فى القرآن من معان.

ووظيفة اللغة العربية كلغة القرآن تتركز فى توحيد الأمة الإسلامية، التى دخل فيها الفارسي والحبشي والرومي في العصر الأول من الدعوة الإسلامية، فنسوا لغتهم الأصلية، ونقل ابن منظور رواية الحافظ ابن عساكر أن رجلا عاب على غير العرب مناصرة محمد العربي، يريد أن يصرفهم عنه لاختلاف أجناسهم ولغاتهم، فغضب النبي صلى الله عليه وسلم وخطب في المسجد: "يا أيها الناس إن الرب واحد، والأب واحد، وإن الدين واحد وليست العربية بأحدكم من أب ولا أم، وإنما هي اللسان، فمن تكلم بالعربية فهو عربي" (ابن منظور، ١٩٨٤: ٣٣٨).

ووجوه الإعجاز القرآني تتنوع في شتى ميادين الدراسات الإسلامية كعلم الأصول والتفسير والبلاغة ولا يزال البحث يكشف عن جديد وبخاصة في هذا العصر الذي ازدهرت فيه العلوم والفنون والاكتشافات العلمية الحديثة في النفس والفضاء والأرض وما فيها، والطب ونظائره من العلوم الإنسانية والعملية، ويدور الإعجاز القرآني كما يراه القدماء حول الوجوه الآتية:

١. الأخبار والوعود الصادقة.
٢. الإخبار عن الغيوب التي وقعت كما أخبر عنها القرآن.
٣. فصاحة ألفاظه وسلامة معانيه وشرفها.
٤. نظمه المحكم وتأليفه البديع وسلامته من الطعون (زقزوق، ٢٠٠٣: ١٧٦).

ويرى المحدثون أن الإعجاز القرآني العلمي الحديث ظهر في كثير من ميادين المعرفة التي طرقها الاكتشافات العلمية الحديثة مثل المجال الطبي والنفسي والنباتي وطبقات الأرض وغيرها. ففي كل هذه المجالات ظهرت حقائق يقينية طابقت إشارات القرآن إليها خمسة عشر قرنا، ولو لم يكن القرآن نازلا بعلم الله من عند الله لما ورد فيه شيء من الخرائق العظيمة.

ومع هذه الحقائق العلمية التي تدل على إعجاز القرآن علميا ونظريا فهناك حملة قام بها المستشرقون لزعزعة اليقين وغرس الوسوسة في صدور المسلمين عن مضمون صدق القرآن. فهؤلاء المستشرقون ليسوا على حد سواء في مواقفهم. فمنهم من وقف على الحق وأنصفه، ومنهم من أساء واعتدى. ومن أخطر الفكر الاستشراقي الذي أسهم في الهجمة على القرآن من خلال الدراسات القرآنية:

١. كتاب تيودور نولدكه (تاريخ القرآن)، وهو من أهم الكتب التي ألفها المستشرقون في تاريخ القرآن الكريم، وأصبح هذا الكتاب إنجيل المستشرقين في مرجعية الدراسات القرآنية.

٢. كتاب جولدتسهير الذي ترجمه الدكتور عبد الحليم النجار تحت عنوان: مذاهب التفسير الإسلامي.

٣. كتاب جون وانسبرو بعنوان: دراسات قرآنية: مصادر الكتب المقدسة وطرق تفسيرها، ويعد هذا الكتاب من أخطر كتب المستشرقين حيث تأثر به جانب كبير ممن جاءوا بعده في البحث القرآني أو التاريخ الإسلامي عامة.

٤. كتاب دون ريتشاردسون بعنوان أسرار القرآن الذي يخلط بين الدراسات القرآنية والسياسة.

٥. كتاب نيل روبنسون بعنوان اكتشاف القرآن: مقاربة معاصرة لنص محجب.

٦. كتاب كريستوف لوكسنبورج بعنوان: كتاب سريانية – آرامية للقرآن: مساهمة في تحليل لغة القرآن.

٧. كتاب ابن وراق بعنوان لماذا أنا لست مسلما؟ حيث إن المؤلف يقدم نقدا لاذعا وقويا ضد الإسلام في منهجية علمية في العرض دون الصدق في المضمون (داود، دون السنة: ١٣-١٥).

والمدهش العجيب أن القرآن كلما اشتد الهجوم عليه من معارضيه ومنكريه ازداد تألقا وقوة، فحقائق القرآن الخالدة تدحض الزيف والافتراء وكل ما يثيره أعداء القرآن من شهبات. دل على هذا قوله تعالى سورة فصلت، الآية: ٤٢: {لَّا يَأتِيهِ ٱلبَٰطِلُ مِن بَينِ يَدَيهِ وَلَا مِن خَلفِهِۦۖ تَنزِيل مِّن حَكِيمٍ حَمِيد}، وتقوم آيات القرآن على إقناع العقل وطمأنينة القلب وفضح الزيف والافتراء حتى لا يبقى أمام المتمرد إلا أحد أمرين: إما أن يؤمن عن بينة وإما أن يكفر عن بينة. هذا ما يتعلق بالقرآن الكريم من حيث الإعجاز اللغوي الذي يمكن إدراكه فيه، وهو كلام الله تعالى المعجز المنزل على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم المكتوب في المصاحف المنقول بالتواتر المتعبد بتلاوته.

منهج البحث

هذا البحث هو من ضمن البحث النوعي، والبحث النوعي كما قال مايكل قوين بتون ومايكل كوكران هو البحث الذي يهتم بإجابة الأسئلة التي لا تمكن إجابتها بالبيانات الكمية. ويهتم البحث من هذا النوع بمحاولة إجابة الأسئلة من أمثال ''ماذا؟''، ''كيف؟''، ''لماذا؟''. ولكن هذا البحث، ليس البحث النوعي العادي الذي يعتمد كثيرا على الحوار بين الباحث والناس الذين أخذت منهم البيانات، وإنما يدخل هذا البحث من ضمن البحث الذي

يعتمد على الكتب والمقالات أي البحث المعتمد على الكتابات، سماه المجتمع الغربي *literature based research*. وقال البعض إن هذا النوع من البحث يسمى مراجعة النصوص *(literature review)*. ولكن هناك بعض الفروق، حيث أن الأول أي البحث المعتمد على الكتابات له خطة علمية أكثر من الثاني.

والموضوع لهذا البحث هو فصاحة القرآن والتطور اللغوي. هذا الموضوع يدور حول اللغة العربية الفصيحة في القرآن الكريم وتطور اللغة اللعربة للعرب. وذلك بإضافة عدة أفكار المتخصصين في هذا المجال.

والمدخل الذي يسير عليه الباحث هو المدخل الاستقرائي *(inductive approach)* والبحث الاستقرائي هو البحث الذي يحاول الكشف النمط أو النظام من خلال الملاحظة، وتطوير البيانات والنظريات لهذا المنهج من خلال سلسلة من التحليل. والاستقراء هو ضد الاستدلال. البحث الاستدلالي يبدأ بالنظريات ثم ملاحظة تطبيق هذه النظريات في الميدان الواقعي. بخلاف ذلك، فالبحث الاستقرائي يبدأ أولا بالملاحظات، ثم التأمل والتفكير للوصول فيما بعد إلى النمط والنظريات (عاقل يورناي: ٢٠٠٨). هذا المدخل ما يقال بالإنجليزية "*bottom-up approach*" . رغم أن النتائج التي تأتي من مثل هذا البحث قد يكون غير معين إلى درجة ما.

تكون مصادر بياناتها الأولية كتابات تتعلق بموضوع البحث. وهناك مصادر أو مراجع أساسية وهناك أيضا مراجع ثانوية. قام الباحث باستقراء تلك الكتابات، وقراءتها قراءة جدية. وبعد أن يتشكل الفهم الصحيح والصورة الذهنية الواضحة عن موضوع البحث، سيقوم الباحث بتحليل هذه المعلومات وتحقيقها، وإضافة عناصر مهمة تسهل الفهم والتصور للقارئ.

بعد أن قام الباحث بقراءة المراجع الأساسية والثانوية، أخذ الباحث المعلومات الهامة التي تتعلق بالموضوع، ثم يقوم بتحليلها وبيانها باستخدام النظريات التي تم جمعها في الإطار النظري.

عربية القرآن

لقد نزل القرآن الكريم باللغة العربية. فقد بلغ غاية الفصاحة ونهاية البلاغة بين قوم لا يخلون من جملتهم من شاعر فحل، أو خطيب مصقع. وكان القرآن الكريم جامعا لفنون البلاغة، حاويا لأطراف البيان والفصاحة، محكما في نظمه. فقد بلغت فصاحة العرب بعد مراحل طويلة من النمو والتطور، ومن الصعب تحديد الزمن الذي يعد بدءا حقيقيا للغة العربية الفصحى حيث لم يرد النقوش الكافية التي تدل على بدء فصاحة العرب. فعلماء اللغة السامية التي تعتبر من أصل اللغة العربية – لما فيها من وجوه الاتفاق والتشابه بينهما – قد عثروا على نقوش تمتد من أواخر القرن الثالث الميلادي إلى القرن السادس، ولكن هذه النقوش قليلة وقصيرة، وأكثرها في أمور شخصية، وليس بينها نص أدبي أو نص طويل يمكن توضيح جملة الخصائص اللغوية لتلك اللغة التي كان يتحدث بها كتبة هذه النقوش (شوقي، دون السنة: ١١٨).

والقرآن الكريم إذ جاء بأصفى ألفاظ اللغة العربية وأعذبها وأفصحها، فلا يمكن أن يخدش عربية لغة القرآن، ولم يوجد لفظ واحد فيه إلا وله أصالة في العربية. وهذا لا يتناقض مع ما يدعيه البعض من وجود ألفاظ أعجمية. فوصف القرآن نفسه بأنه نزل بلسان عربي مبين يتقتضي أن اسم الشيء ووصفه المخلوع على اسمه معا يجب أن يحمل على جميعه، وعليه يكون القرآن جميعه عربيا. فقد زعم المشككون أن ورود بعض الكلمات الأعجمية فيه يتناقض مع كونه كتابا منزلا بلسان عربي مبين مثل:آدم، وأباريق، وإبراهيم، وأرائك، وغير ذلك. فهي الكلمات وإن كانت غير عربية الأصل في الوضع اللغوى، فهى عربية باستعمال العرب لها قبل عصر نزول القرآن وفيه.. وكانت سائغة ومستعملة بكثرة فى اللسان العربى قبيل نزول القرآن وهذا الاستعمال فارقت أصلها غير العربى، وعدت عربية نطقاً واستعمالاً وخطا.

واللغة العربية كبقية اللغات البشرية الأخرى – قبل أن تكون لغة الوحي من السماء المتعبد بدراستها – هي وسيلة للتعبير وأداة التوصيل والتواصل والتفاهم بين البشر. فوظيفتهاأساسا هي نقل ما يجيش في خاطر البشر ونوازع النفس وما ينتاب الشخص من شعور دافق وخلجات باطنة وظاهرة، فتنتقل إلى طالبها بطريقة الأصوات ويعبر عنها

بالأحرف الألفاظ، ومن ثم عرف ابن جني اللغة بأنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم (ابن جني، دون السنة: ٣٣). وهذا لا يعني أن اللغة العربية لغة مقدسة لها طابع غامض أو سحري أو نحو ذلك، لكن يعني هذا أن تركيبها الأساسي كان في غاية القوة بحيث استطاعت أن تحمل رسالة السماء وكلمات الله وأن تؤدي ذلك كله للبشرية على نحو غاية في القدرة والاقتدار.

فنزول القرآن الكريم بلغة العرب الذين كانوا ينظمون فيها أشعارهم ويلقون فيها خطبهم ويتخاطبون بها فيما بينهمدليل لا شك فيه عن التحدي على الأمة العربية فعجزوا عن الرد عنه. فكفى بهذه الشهادة شرفا وفضلا لهذه اللغة على سائر اللغات. وقال أبو عبيدة: إنما أنزل القرآن بلسان عربي مبين فمن زعم أن فيه غير العربية فقد أعظم القول ومن زعم أن لدا بالنبطية فقد أكبر القول، وقال ابن فارس:"لو كان فيه من لغة غير العرب شيء لتوهم متوهم أن العرب إنما عجزت عن الإتيان بمثله لأنه أتى بلغات لا يعرفونها (ابن فارس، ١٩٩٧: ٣٣).

قال ابن كثير: "وأما القرآن فجميعه فصيح في غاية نهايات البلاغة عند من يعرف ذلك تفصيلا وإجمالا ممن فهم كلام العرب وتصاريف التعبير، فإنه إن تأملت أخباره وجدتها في غاية الحلاوة، سواء كانت مبسوطة أو وجيزة، وسواء تكررت أم لا وكلما تكرر حلا وعلا لا يَخلق عن كثرة الرد، ولا يمل منه العلماء، وإن أخذ في الوعيد والتهديد جاء منه ما تقشعر منه الجبال الصم الراسيات، فما ظنك بالقلوب الفاهمات، وإن وعد أتى بما يفتح القلوب والآذان، ويشوق إلى دار السلام ومجاورة عرش الرحمن" (ابن كثير، ١٩٩٩: ٢٠٠).

وقال الغزالي: "إذ اشتمال جميع القرآن على كلمتين أو ثلاث أصلها عجمي وقد استعملتها العرب ووقعت في ألسنتهم لا يخرج القرآن عن كونه عربيا، وعن إطلاق هذا الاسم عليه، ولا يتمهد للعرب حجة فإن الشعر الفارسي يسمى فارسيا وإن كانت فيه آحاد كلمات عربية إذا كانت تلك الكلمات متداولة في لسان الفرس فلا حاجة إلى هذا التكلف" (الغزالي، ١٤١٣ هـ: ٨٥).

وقال الألوسي في تفسير الآية: ٣٤ من سورة الإسراء وهي قوله تعالى: (وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا)، عندما تحدث عن معنى

القسطاس: "... وعلى القول بأنه رومي معرب وهو الصحيح لا يقدح استعماله في القرآن في عربيته المذكورة في قوله تعالى:(إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا)، لأنه بعد التعريب والسماع في فصيح الكلام يصير عربياً فلا حاجة إلى إنكار تعريبه أو ادعاء التغليب أو أن المراد عربي الأسلوب.

ورد القرآن نفسه على من زعم أن نبي الإسلام محمدا صلى الله عليه وسلم يعلمه بشرعلى نحو ما ورد في سورة النحل،(وَلَقَد نَعلَمُ أَنَّهُم يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌۗ لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلحِدُونَ إِلَيهِ أَعجَمِيّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّ مُّبِينٌ)، وكذلك في سورة فصلت آية ٤٤: (وَلَو جَعَلنَٰهُ قُرءَانًا أَعجَمِيًّا لَّقَالُواْ لَولَا فُصِّلَت ءَايَٰتُهُۥٓ ءَاعجَمِيّ وَعَرَبِيّٞۗ قُل هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدى وَشِفَاءٞۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤمِنُونَ فِي ءَاذَانِهِم وَقر وَهُوَ عَلَيهِم عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَونَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيد).

وتتمثل فصاحة اللغة العربية في شكل كامل النضج سواء من حيث الإعراب والتصريف والاشتقاق أو من حيث التنويع الواسع في الجموع والمصادر وحروف العطف وأدوات الاستثناء والنفي والتعريف والتنكير والانتهاء بالممنوع من الصرف إلى نظام تام منضبط،إضافة إلى ذلك احتفاظها بحروف ومخارج، وهذا الأخير من خصائص اللغة العربية التي لم تحتفظ بها اللغة السامية وهي لغة الأم لها وأصل لها احتفاظا كاملا، وهي الثاء والخاء والذال والظاء والضاد والغين. فالقرآن الكريم له دوره في أقصى الأهمية في الحفاظ على اللغة العربية الفصحى والإبقاء عليها رغم كل عوامل الإحباط التي تحوطها حتى تكاد أن تتحول إلى لغة خاصة لا يستعملها إلا من تتوفر فيه مواصفات أدبية وعقدية معينة. فالفتوحات الإسلامية في الدول الأسيوية تشهد جهود المسلمين الذين يحملون دينهم إلى تلك المناطق وينشرون راية القرآن وعلموا تلك الشعوب خصائص اللسان العربي حتى استبدلته بلغاتها الأصلية، فظهر جبهة من العلماء من تلك المناطق الأعجمية المتخصصون الذين تبحروا في فنون العربية وصاروا أئمتها الذين يرجع إليهم ويفتون في مشكلاتها كسيبويه وابن سينا، والفيرابي والبيروني والرازي وغيرهم من العباقرة، تشهد آثارهم بعظمة ما استكن في قلوبهم من حب العربية وولاء للقرآن الكريم.

فبقاء اللغة العربية راجع إلى الدفاع عن القرآن، لأن الدفاع عنه لكونه أصل الدين ومصدر العقيدة يستتبع الدفاع عنها، لأنها السبيل إلى فهمه، بل لأنها السبيل إلى الإيمان بأن

الإسلام دين الله، وأن القرآن من عنده. وأشار الأستاذ عباس محمود العقاد إلى أن إنسانية الإسلام وعالمية تشريعه ساعدت على انتشار العربية التي هي لغة كتابه (القرآن) الذي وحد في المؤمنين به مقاصد الضمائر والألسنة والأفكار على الرغم من اختلافهم في مواقع البلاد. يضاف إلى هذا أن الألفاظ التي ستخدمها القرآن صارت هي الأهم والأبهى والأجمل والأكثر شيوعا وتداولا على الألسنة.فاللغة العربية كغيرها من لغات البشر خاضعة للتغير والتبدل والزوال والفناء، والقرآن بحكم أنه لسان الإسلام الناطق هو الذي حفظها من الضياع، لأنه جاء على وجه تحدى به العرب تحديا صارخا. ولو أن القرآن جاء كما جاء غيره من الكتب السماوية مجردا عن الإعجاز لما كان حتما على الناس أن يلزموا أنفسهم بحفظه.

وقد وضع العلماء شروطا للحصول على رتبة الاجتهاد في الدين، منها إتقان اللغة العربية لأنها لغة القرآن الذي نزل بها، ولغة تحدث بها نبي الإسلام صلى الله عليه وسلم، فمن الضروري أن يشترط ذلك لمن بلغ رتبة الاجتهاد في علوم الدين.

قال الإمام الشافعي رحمه الله: "فعلى كل مسلم أن يتعلم منن لسان العرب ما بلغه جهده حتى يشهد به أن لا إله إلا الله وأن محمد عبده ورسوله ويتلوا به كتاب الله وينطق بالذكر فيما افترض عليه من التكبير وأمر به من التسبيح والتشهد وغير ذلك (الشافعي، ١٩٣٩: ٤٨). وقال أبو إسحاق الشيرازي في صفة المفتي: "ويعرف من اللغات والنحو ما يعرف به مراد الله ومراد رسوله صلى الله عليه وسلم في خطابهما" (الشيرازي، ١٩٨٥: ١٢٧).

وقال الماوردي: "ويكون من أهل الاجتهاد إذا أحاط علمه بخمسة أصول... الخامس علمه بالعربية فيما تدعو الحاجة إليه من اللغة والإعراب، لأن لسان الكتاب والسنة عربي ، فيعرف لسان العرب، من صيغة ألفاظهم وموضوع خطابهم ليفرق بين الفاعل والمفعول، وحكم الأوامر والنواهي، والندب والإرشاد، والعموم والخصوص (الماوردي، ١٩٩٤: ٥٠-٥١)، وقال في موضع آخر:"كان معرفة لسان العرب فرضا على كل مسلم من مجتهد وغير مجتهد. إلَا أن غير المجتهد يلزمه من فرضه ما اختص بتكليفه من الشهادتين

وما تتضمن الصلاة من القراءة والأذكار ولا يلزمه معرفة ما عداه إلا بحسب ما يتدرج إليه في نوازله وأحكامه" (الماوردي، دون السنة: ١٢٠).

وقال ابن تيمية: "ومعلوم أن تعلم العربية وتعليم العربية فرض على الكفاية، وكان السلف يؤدبون أولادهم على اللحن، فنحن مأمورون أن نحفظ القانون العربي، ونصلح الألسن المائلة عنه، فيحفظ لنا طريقة فهم الكتاب والسنة والاقتداء بالعرب في خطابها، فلو ترك الناس على لحنهم كان نقصا وعيبا" (ابن تيمية، دون السنة: ٢٥٢).

الفصاحة في العربية

الفصحى لغة: وصف لمؤنث من فصُح يدل على التفضيل، يدور معنى هذه المادة حول الخلوص والظهور والبيان. والفَصْح خلوص الشيء مما يشوبه. وأصله في اللبن، يقال فصح اللبن، وأفصح فهو مفصح وفصيح إذا تعرى من الرغوة. ومنه استعير: فصح الرجل إذا جادت لغته، وأفصح تكلم بالعربية، قال تعالى في سورة القصص، بعض الآية: ٣٤: (وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا...)، أي أبين وأظهر. واصطلاحا اختلف العلماء في المراد بالفصيح، فيرى كثير أنه ما كثر استعماله على ألسنة العرب الفصحاء.

قال السيوطي: "والمفهوم من كلام ثعلب، أن مدار الفصاحة في الكلمة على كثرة استعمال العرب لها. فإنه قال في أول فصيحه: هذا كتاب الفصيح مما يجري في كلام الناس وكتبهم، فمنه ما فيه لغة واحدة والناس على خلافها، فأخبرنا بصواب ذلك، ومنه ما فيه لغتان وثلاث وأكثر من ذلك، فاخترنا أفصحهن، ومنه ما فيه لغتان كثرتا واستعملتا، فلم تكن إحداهما أكثر من الأخرى، فأخبرنا بهما (السيوطي، ١٩٨٦: ١٨٤). والمراد بالفصحاء الموثوق بعربيتهم هم الذين يستشهد بكلامهم من أهل الجاهلية والمخضرمين ومتقدمي الإسلاميين حتى سنة ١٥٠هـ تقريبا، ويختمون عند الأصمعي بإبراهيم بن هرمة فهو آخر من يحتج بشعره عنده (البغدادي، ١٩٩٧: ٤٢٤).

ويرى بعض اللغويين أن الفصيح لا يخضع لكثرة الاستعمال ولا لقلته، وإنما الفصيح ما أفصح عن المعنى واستقام لفظه على القياس، لا ما كثر استعماله، وليس كل ما ترك الفصحاء استعماله بخطإ، فقد يتركون استعمال الفصيح لاستغنائهم بفصيح آخر، أو لعلة غير ذلك. وقد جمع البلاغيون بين الرأيين، فذكروا أن فصاحة الكلمة تكون بخلوصها من

عيوب ثلاثة: تنافر الحروف والغرابة ومخالفة القياس. فإن كانت الكلمة متنافرة الحروف، مثل: الهعخع، اسم لنبت، إو غريبة مثل: تكأكأتم أي اجتمعتم، أو مخالفة القياس مثل: الأجلل في الأجل، فهي غير فصيحة، ثم قالوا: وعلامة كون الكلمة فصيحة: أن يكون استعمال العرب الموثوق بعربيتهم لها كثيرا، أو أكثر من استعمالهم ما بمعناها (القزويني، ٢٠٠٣: ٢٤).

والفصيح ليس على درجة واحدة، فله رتب متفاوتة، فمنه الفصيح والأفصح، ونظير ذلك في علوم الحديث تفاوت رتب الصحيح، ففيها صحيح وأصح. وكلام اللغويين يشهد بذلك. ففي "ذيل الفصيح": وتشديخ النخل – أي شق بسره – أفصح من التشقيح. ومجَّح العنبُ إذا بلغ وطاب – أفصح من مزج – أي اصفر بعد الخضرة (السيوطي، ١٩٨٦: ١٨٤). فقد ورد في لسان العرب: ضربة لازب، أفصح من لازم (مادة: لزب، في لسان العرب) (ابن منظور، دون السنة: ٧٣٨). ونقل السيوطي عن الجمهرة: البُرُّ أفصح من قولهم القمح والحنطة. ونقل عن ابن خالويه في شرح الفصيح: قد أجمع الناس جميعا أن اللغة إذا وردت في القرآن فهي أفصح مما في غير القرآن لا خلاف في ذلك. وخلاف الفصيح إما ضعيف أو منكر أو متروك. فالضعيف ما انحط عن درجة الفصيح، والمنكر أضعف منه وأقل استعمالا بحيث أنكره بعض أئمة اللغة ولم يعرفه. والمتروك ما كان قديما من اللغات ثم ترك واستعمل غيره. وقد ضرب السيوطي أمثلة لذلك (السيوطي، ١٩٨٦: ٢١٤).

وأجمع العلماء والرواة أن قريشا أفصح العرب ألسنة، وأصفاهم لغة، وكانت مع فصاحتها وحسن لغاتها ورقة ألسنتها إذا أتتهم الوفود من العرب تخيروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم وأصفى كلامهم، فاجتمع ما تخيروه من تلك اللغات نحائزهم إلى سلائقهم التي طبعوا عليها فصاروا بذلك أفصح العرب (ابن فارس، ١٩٩٧: ٢٨).

أهمية اللغة العربية الفصحى

كانت العربية عند ظهور دين التوحيد لغة قبائل: لربيعة في شمال جزيرة العرب لهجة، ولتميم وقيس ومن انضاف إليهم في وسط الجزيرة لهجة، ولكنانة وهذيل وثقيف وخزاعة وأسد وضبة وألفاظها من عرب الحجاز وتهامة لهجة فضلا عن لغة اليمانيين في جنوب الجزيرة، وكانت لهجة القبيلة الواحدة تفترق عن لهجة غيرها في مادة اللغة وكيفية النطق بها. فبظهور الرسالة التي جاء بها نبي الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم تتوحد أو تكاد أن

تتوحد تلك اللهجات في لهجة قريش التي كانت تمثل أرقى لهجات اللغة العربية ونزل القرآن بها. وما تزال العربية في جميع الدراسات التي تناولتها قبل الإسلام تشهد بسبقها وامتيازها (الجندي، ١٩٨٢: ٢٥).

ومن ثم يتضح أن من أهم الأسباب التي تدل على أهمية اللغة العربية الفصحى ما يلي:

١. أن اللغة العربية الفصحى هي لغة نبي الإسلام سيّدنا مُحمّد (صلى الله عليه وسلم)، ولا تتم أي صلاة من المسلمين إلّا بإتقان بعضٍ من جوانب هذه اللغة.لأنّها معجزة بحد ذاتها؛ إذ إنّها لغة كتاب الله تعالى القرآن الكريم، والذي تحدّى به رب العالمين العالم أجمعين؛ ففي المرحلة الأولى قد تحدّى الله تعالى قوم قريش على الإتيان بمثله على نحو ما سبق ذكره.

٢. أنّ اللغة العربية الفصحى هي إحدى اللغات السامية القديمة؛ فاللغات السامية تقسم إلى لغات سامية شرقية وسامية غربية، وتقع اللغة العربيّة الفصحى ضمن اللغة السامية الغربية– الوسطى، واللغات السامية هي من أقدم اللغات في العالم، وهي لغات أفرو آسيوية (وهي اللغات التي يتحدث بها سكان قارتي أفريقيا وآسيا منذ العصر الحجري الحديث)، وهي الأكثر استخداماً من بين كلّ اللغات السامية.

٣. لأنّ اللغة العربية الفصحى هي اللغة التي وحّدت جميع اللهجات العربية بغض النظر عن مدى صعوبة اللهجات واختلافها عن بعضها البعض، ولذلك فإنّها اللغة الرسميّة التي يتم تعليمها إجبارياً في جميع مدارس الوطن العربي .تعدّ اللغة العربيّة من أغنى اللغات وأكثرها غزارة، كما أنّها مرنة في ذات الوقت، فمن جذر الكلمة الواحدة نستطيع استخراج العديد من الصّفات والأفعال.

تحديات العربية الفصحى في العالم الواقع

كانت التحديات التي تواجهها اللغة العربية الفصحى ليست مقصورة في الشعب الأعجم الذين لا ينطقون ولا يعرفون شيئا عن اللغة العربية. بل إن الأمة العربية أو كثيرا منها قد تخلت عن لغتها وعزلوها عن موضووعات الحضارة. وتواجه اللغة العربية الفصحى جملة من التحديات التي تعاني من أجلها العزلة عن الحياة اللغوية. وذلك لأن اللهجات العامية المنتشرة في الوطن العربي قد حلت محل هذه اللغة الفصيحة. فالدول العربية التي بلغ عددها اثنتين وعشرين دولة المجوعة في عضوية جامعة الدول العربية لديهم اثنتان وعشرون لهجة محلية. بل إن الدولة الواحدة قد يكون فيها أكثر من لهجة، ويتفاهم المواطنون في تلك الدولة بالعامية المشتركة التي تتبناها أجهزة الإعلام. وهذا ما حدث بالفعل في الوطن العربي، فتختلف لهجاتهم في التطبيق اليومي من الكلام ولكنهم يقتربون من اللغة الفصحى عند مستوى ثقافي معين.

إضافة إلى ذلك أن المشتغلين بتدريس الطلاب في المدارس العامة استعملوا اللهجات المحلية أو اللغة العامية بل إن كثيرا من أساتذة الجامعات في الآداب يستخدمون اللهجات المحلية أيضا. فالتحديات التي تواجتها اللغة العربية الفصحى يمكن تلخيصها فيما يلي:

١. استبدال العامية بالفصحى،
٢. تطوير الفصحى حتى تقترب من العامية،
٣. الهجوم على الحروف العربية والدعوة إلى استعمال الحروف اللاتينية
٤. إسقاط الإعراب في الكتابة والنطق.
٥. الدعوة إلى إغراق العربية في سيل من الألفاظ الأجنبية.
٦. محاولة تطبيق مناهج اللغات الأوروبية على اللغة العربية ودراسة اللهجات والعامية.

التطور اللغوي في العربية ومظاهره

اتبعت اللغة العربية النهج الطبعي الذي سلكته اللغات العالمية لتجديد ثوبها وإثبات قدرتها على السيطرة للمواقف المختلفة التي تفرضها الحضارة. فاللغة العربية بقرآنها وأشعارها ونصوصها باقية على الدوام. فمن خلال تلك النصوص يستطيع الإنسان أن يتصور مظاهر

تطور اللغة. فاللغة العربية في العصر الجاهلي مطبوعة بالنزعة الحسية المادية في كل شيء، واستمرت هذه الحالة إلى أن اتسعت حواضر العرب بفعل الإسلام، فنقلت ألفاظ العربية من مواضع إلى مواضع أخر بزيادات وشرائط وضوابط معينة.

فألفاظ المؤمن والمسلم والكافر والمنافق وغيرها من الكلمات التي يحملها الإسلام مثلا، يعرفها العرب من الأمان والتسليم والغطاء والستر. ولم يعرف العرب معنى الفسق إلا قولهم: فسقت الرطبة، إذا خرجت من قشرها، وجاء الشرع بأن الفسق الإفحاش في الخروج عن طاعة الله جل ثناؤه.

وهذا التطور اللغوي الذي حدث على اللغة العربية يمكن تقسيمه فيما يلي (الأعشير، ٢٠١٤: ١٢٢-١٤٣).

١. انتقال مجال الدلالة

اللفظ إذا كثر استعماله لا يثبت على حالة واحدة، فينتقل من دلالته الأصلية إلى دلالة أخرى قائمة على المشابهة أو اعتمادا على علاقات المجاز المرسل كالسببية والمسببية وغيرك من بقية العلاقات. فهي كلها علاقات تسوغ الانتقال إلى معنى جديد لا يقطع الصلة بالمعنى القديم، مثل الرائد الذي كان في الأصل يطلق على الشخص الذي يرسل لطلب الكلأ ويتقدم قومه يدلهم على مساقط الغيث ومصادر الكلأ، وهذا اللفظ في استعمال المعاصر يدل على معنى الزعامة والتقدم بين قوم، مثل: هذه فكرة رائدة، وهذا مفكر رائد بمعنى زغيم ومقدم في ميدانه.

٢. تعميم الدلالة

وهو انتقال المعنى الضيق إلى معنى أو معاني أكثر اتساعا، حيث إن كثرة استعمال المعنى الخاص في المعاني العامة بواسطة توسيع الدلالة تغلب المعنى الخاص الذي تدور عليه الدوائر مع مرور الأيام، وذلك مثل الركب الذي يطلق على راكب البعير خاصة. وفي غيره يقال: فارس، وحَمار، وبَغال، ثم عمت دلالة الراكب لتشمل ركوب كل شيء سواء كانت وسيلة الركوب بدوية أو من مستحدثات العصر.

٣. تخصيص الدلالة

وهو عبارة من تغيرات اجتماعية تلحق بالألفاظ تبعا لحاجات المجتمع اللغوي، أو انسجاما مع التغيرات العقدية كما حدث لكثير من ألفاظ العبادات التي حدد الدين الإسلامي مجال استعمالها وخصصها بدلالات محددة، مثل الإيمان الذي تنصرف دلالته إلى الأمان على العرض والمال وتحولت إلى التصديق بكل شيء. وخصص هذا اللفظ في الإسلام بالتصديق بالله ورسله وكتبه وملائكته والقدر خيره وشره. وكذلك الصلاة التي كانت في الأصل للدلالة على الدعاء ثم تنصرف دلالته لمجموعة من الأفعال والأقوال المبتدأة بالتكبير والمختتمة بالتسليم بشرائط وأركان مخصوصة.

٤. رقي الدلالة

ظهور الارتقاء أو الانحطاط لدلالة الألفاظ قد يكون مستمدا من السطلة الدينية أو السياسية أو الحضارية، حيث تكون دلالتها الأصلية عادية أو وضيعة، ثم تتحول إلى دلالة أرقى وأشرف، وذلك مثل لفظ الرسول الذي يعني مجرد شخص يرسل في مهمة محددة سواء كان وضيعة أو جليلة، واستعمل الإسلام هذا اللفظ في منزلة الشرف والرقي إذ خصه بشخص الرسل والأنبياء الذي حملوا الرسالة السماوية.

٥. انحطاط الدلالة

قد تلحق الحسة بعض الألفاظ على إثر تطورات الذوق في الحياة العامة، فتحل محلها ألفاظ تنسجم مع درجة التمدن والتغير االذين تصل إليهما الجماعة اللغوية. وكان للعرب مبدأ قديم يؤكد حرصهم على قلب المسميات التي لا تعجبهم إلى أضدادها نظرا لانحطاط دلالتها فيجعلون المنحط منها مقبولا مثل قولهم: البصير للأعمى، والمفازاة للصحراء المهلكة، والسليم للملذوع، والمبروكة للحمى

الخلاصة

وبعد عرض هذه النقاط السابقة حول إعجاز القرآن، وفصاحته، ومفهوم الفصاحة في العربية، وأهمية اللغة العربية الفصحى وتحدياتها في العالم الواقع، والتطور اللغوي في العربية ومظاهره، يمكن القول إن أن اللغة العربية الفصحى التي كان القرآن الكريم في قمتها ليست مجرد وسيلة حاملة للفكر، ولكنها فوق ذلك تمثل الدين الإسلامي، وتؤشر على الخصائص الموحدة للعروبة، وأن التطور التي حدث فيها يجب أن يسير وفق نظام محدد في أصواتها

وصرفها ونحوها ودلالاتها، وأن هذه الأنظمة ليست متساوية في الاستجابة للتطور بدليل أن الأنظمة الصوتية والصرفية والتركيبية قد بلغت شأنا بعيدا في الاستقرار والكمال الذي يتوفر في اللغة العربية، فانفردت العربية بظاهرة الخلود التي لم تتوفر لغيرها من اللغات الإنسانية القديمة والحديثة.

المراجع

ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس تقي الدين. *مجموعة فتاوى شيخ الإسلام*. ط. مجمع الملك فهد المملكة السعودية العربية، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

ابن جني، أبو الفتح عثمان. *الخصائص*. تحقيق محمد علي النجار، بيروت–لبنان: طبعة دار الهدى للطباعة والنشر. الطبعة الثانية.

ابن حبان، محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التيمي البستي. *صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان*، تحقيق شعيب الأرنؤوط. بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.

ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، الصاحبي. *فقه اللغة ومسائلها وسنن العرب في كلامها*. تعليق: أحمد حسن بسج. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

ابن كثير. *أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (٧٠٠ –٧٧٤ هـ)*. المحقق: سامي بن محمد سلامة. طبعة: دار طيبة للنشر والتوزيع الطبعة : الثانية، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

ابن منظور، محمد بن مكرم المعروف بابن منظور (٦٣٠ – ٧١١هـ). *مختصر تاريخ دمشق*. تحقيق: روحية النحاس، رياض عبد الحميد، محمد مطبع الحافظ. سورية دمشق: دار الفكر، ١٤٠٤هـ – ١٩٨٤م.

----------. *لسان العرب*. بيروت: دار صادر، الطبعة: الأولى.

الأعشير، عبد الله آيات. *اللغة العربية الفصحى نظرات في قوانين تطورها وبلى المهجور من ألفاظها*. الكويت: مجلة الوعي الإسلامي، ١٤٣٥هـ/ ٢٠١٤م.

الباقلاني، أبو بكر محمد بن الطيب. *إعجاز القرآن*. مصر: دار المعارف، ١٩٩٧م.

البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله أبو عبد الله الجعفي. *الجامع الصحيح المختصر*. بيروت: دار ابن كثير، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، الطبعة: الثالثة، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا.

البغدادي، عبد القادر بن عمر. *خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب*. تحقيق: عبد السلام هارون. القاهرة: مكتبة الخانجي، الطبعة الرابعة، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

الجندي، أنور. *الفصحى لغة القرآن*، بيروت: دار الكتاب اللبناني، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

داود، محمد محمد الدكتور. *كمال اللغة القرآنية بين حقائق الإعجاز وأوهام الخصوم*. طبعة دار المنار القاهرة.

الزركشي، محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي أبو عبد الله. *البرهان في علوم القرآن*. بيروت: دار المعرفة،١٣٩١هـ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم.

زقزوق، محمود حمدي. *الموسوعة الإسلامية العامة*. تأليف: مجموعة من المؤلفين، إشراف: أ. د. محمود حمدي زقزوق طبعة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

---------، *الموسوعة القرآنية المتخصصة*، تأليف: مجموعة من العلماء المعاصرين إشراف: أ. د. محمود حمدي زقزوق، طبعة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية وزارة الأوقاف مصر.

السيوطي، جلال الدين بن عبد الرحمن. *المزهر في في علوم اللغة وأنواعها*. تحقيق: محمد أحمد جاد المولى بك، محمد أبو الفضل إبراهيم، علي محمد البجاوي. بيروت: المكتبة العصرية صيدا، ١٩٨٦م.

----------. *الإتقان في علوم القرآن*. لبنان: دار الفكر، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م، الطبعة: الأولى، تحقيق: سعيد المندوب.

الشيرازي، أبو إسحاق إبراهيم بن علي. *اللمع في أصول الفقه*. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٥هـ -١٩٨٥م.

ضيف، شوقي. *تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي*. القاهرة: دار المعارف، الطبعة الحادية عشرة.

الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي. *المستصفى في أصول الفقه*. بيروت: دار الكتب العلمية ١٤١٣هـ، الطبعة: الأولى، تحقيق: محمد عبد السلام عبد الشافي.

القزويني، الخطيب، جلال الدين محمد بن عبد الرحمن بن عمر بن أحمد بن محمد (٧٣٩هـ). *الإيضاح في علوم البلاغة المعاني والبيان والبديع*، شرح إبراهيم شمس الدين. بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٣م/ ١٤٢٤هـ.

الماوردي، القاضي أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري. *الحاوي في فقه الشافعي*. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

مجمع اللغة العربية القاهرة. *المعجم الوسيط*. مصر: ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.